

## عبادة الثعابين المعابد الأثرية في دبي (نموذجاً) خلال الألف الأول ق. م.

د. عزة بنت عبدالرحيم شاهين

عرفت الإمارات العربية المتحدة في العصور المنصرمة العديد من الديانات شأنها شأن بقية دول الخليج العربية، وقد دلت الآثار في كثير من المواقع الأثرية في القصيص (دبي) وفي أم النار (أبوظبي) وكذلك أماكن متفرقة في الشارقة إلى الكثير من الآثار التي دلت على الديانات المتعددة وإن الشواهد الأثرية هي من الوضوح بمكان لتلك المعتقدات، ومنها عبادة الشمس وعبادة الجمل وعبادة الخيل وعبادة النار وعبادة الثعابين التي سوف نتحدث عنها في هذه المحاضرة، يقول ج. سيرلوت في قاموس الرموز: (الأفعى رمز للطاقة وللقوة الخالصة البسيطة) على أن الثعبان عرفته الأمم السابقة ليس في حوض الخليج العربي فقط، بل في كثير من أصقاع العالم الحضري القديم واتخذ كما رموز لمعان كثيرة وفي مجملها قداسة وملهما للشعوب أو قوة، أو حياة، أو الرمز الأكثر قداسة، ولعل أقدم أثر للتقديس الثعبان هو ما عثر عليه في حضارة الموهنجدارو (موه - نجو - دارو) وتمثل ذلك في ثعبان برأسين وقد كان ختماً عجباً خلفه الغزاة الآريون عندما أحكموا قبضتهم على شمال الهند.

وترتبط عبادة الأفعى أو عبادة روحها في الهند برمزية مياه البحر، فالأفاعي حارسة نياييع الحياة والخلود وثرورات الروح العليا والتي يرمز لها بالكنوز الدفينة، كذلك هي رمزاً للخراب وإصابات البلاء.

وهناك عبادة الثعابين موجودة في مصر والسودان فهناك الثعبان برأس أسد في صورة للإله (أبادماك) في منطقة النبعة في السودان.

وكذلك في مصر كان الفراعنة يضعون على قبعاتهم ثعبان واحد أو رسم لثلاثة ثعابين لها دلالاتها القدسية، فقد كانت الأفعى شعار الملكات العظيمات في الأزمنة الأولى، ومنهن: إيزيس وحتشبسوت وسميراميس ونفرتيتي، وكليوباترا وغيرهن.

وهناك ثعبان يحمل في دلالاته النار، وهم يعتبروا حماة ضد الأرواح الشريرة. وأيضاً هناك الصولجانات المقدسة التي تحمل رسوماً للثعابين ولها دلالاتها المقدسة كأن تكون خاصة بالرهبان أو القديسين أو خدام المعابد.

على أن الثعبان وفي الدولة الوسطى قد استبدلت بحرف (د) في بعض الكلمات) كان يمثل حرفاً من حروف الهيروغليفية المصرية (الفرعونية) القديمة، وهو يعني حرف (ج) معطشة وهناك الثعبان الأقرن فهو يرمز إلى حرف (ف) وفي القبطية، ولا ننسى

\* أستاذ مساعد في التاريخ الحديث والمعاصر (السياسي والحضاري) المملكة العربية السعودية - جدة

حكاية نبي الله موسى مع الفراعنة وكيف أن عصاة موسى تحولت إلى ثعبان بإذن الله وأكل ثعابين السحرة ثم تحول ثانياً إلى عصاة واعتبرت العصاة كرمز وسنة للأنبياء، ومازال كثير من المسلمين يحرصون عليها حتى اليوم في كثير من أصقاع العالم بما فيها دولتي عُمان والإمارات وكثير من بوادي العرب.

وهناك معان عدة لكلمة ثعبان عند الشعوب حسب لغاتها ونجد أن كلمة أبيب: إله الفرح من أصله (هوبا) و(هابي) إله النيل من إله الثعابين وذلك لأن الثعبان الكبير (أبيب) يرمز إلى الظلام. (عن التقويم القبطي واللغة القبطية).

وأبيب: من الأشهر القبطية وأساساً مأخوذ من كلمة الورد. وفي ملحمة جلجامش نجد ذكر الثعبان وارداً وهو يرمز إلى الحياة (الجديدة) يقول النص:

فشمت الحيّة شذى (نفس) النبات ...

فشلت واخطفت النبات ...

ثم نزعنا عنها غلاف جلدها.

وهنا يثبت النص جدية الرمز الذي يدل على معان يسوقها الإنسان أو وسائل يستخدمها ليحدد بها جدوى الحياة، ويلتمس فيها هدفه للعالم. (الذنون، عبدالحكيم، بدايات الحضارة، ص ٥٧، ط ٢٠٠٩م، دمشق).

وأما علماء اليونان (الإغريق)، فكان لهم الفضل الكبير في إنشاء المدارس التي تهتم بعلم الطب إلى مصاف الآلهة وأطلقوا عليه لقب إله "والصيدلة، كما رفع الإغريق كاهنهم: (اسكولاس) الشفاء. وكانت الثعابين عندهم رمزاً للحياة والحكمة والشفاء وقد بقي الثعبان الملتف حول العصا رمزاً للصيدلة حتى اليوم.

أما التقديس الباقي إلى يومنا هذا فهو موجود في الهند والبنغال فثعبان العبادة يشير إلى المكانة العالية في الأساطير الهندوسية ويطلق عليه بالسنسكريتية النجا (الملك كوبر - الذكر (الناغا) والأنثى (ناغي)). وبالرغم من أنه مصطلح غامض إلا أن الهندوسية والبوذية استخدمته في كثير من الأحيان على أن كلمة ثعبان في الهندية هو ساط .

وتقدم قرايين الزهور والبخور والشموع وكذلك الحليب طبقاً لمساعدة المصلي لاكتساب المعرفة والثروة في مهرجان هندوسي في اليوم الخامس من شارانا و نلاحظ أن الإله (شيفا) يرتدي ثعبان حول عنقه.

ومازال التقديس العبادي للثعبان في شمال الهند، لاسيما الثعبان: (نقراجا) والمعروفة باسم ملكة الثعابين والتي كانت تعبد أساساً في جنوب الهند، أما الثعبان (ماناسا) فعبادته في البنغال (بنجلاديش).

والناغا تشكل جزءاً هاماً من الأساطير الهندوسية. وتلعب دوراً بارزاً

### في الأساطير المختلفة:

- ١- شيشا Shesha أو أدي شيشا أو شيشانجا (Sheshnaga' Adisesha) وهو رأس الأفعى) تمسك العالم على رأسه كثيرا ويقال لاستخدامها من قبل الرب فيشنو للراحة. Shesha وشيشا أيضا محمية الرب كريشنا من عاصفة رعدية أثناء ولادته.
- ٢- فاصوكي Vasuki إله سمح لنفسه أن يكون ملفوفة حول جبل ماندارا من ديفاس Devas و Asuras ويقدم له شراب الحليب وهو شراب شهيويرمز الى الخلود.
- ٣- كالي كا Kaliya سممت جامونا/ نهر يامونا الذي عاش فيه. كريشنا (Kaliya بالاكريشنا الرضيع) مستضعفة (كالي يا) Kaliya من الرقص عليه وأجبره على مغادرة النهر.
- ٤- (ماناسا) هي ملكة من الثعابين. كما يشار إليها باسم ماناشا Manasha
- ٥- انانتا هي الأفعى التي لا نهاية لها من الأوساط في العالم.
- ٦- (باد مانا بها) Padmanabha غو باد ماكا ( Padmaka) وهو ثعبان وصي على الجنوب الهندي
- ٧- استيكا Astika هو نصف براهمين ونصف النجا.

٨- كولي كا Kulika وهو أحد الآلهات المقدسة من الثعابين أيضا ولا ننسى في ختام هذه المقدمة التاريخية لتقدّيس الثعابين أن نخرج على عبادة الثعابين في البحرين فقد عثر في بعض المعابد في مملكة البحرين على هياكل عظيمة لثعابين حيّة أساساً وموضوعة في زبديات ومغطاة بأغطية من نفس خامة الزبديات الفخارية وبالرغم من جهود علماء الآثار لمعرفة الهدف العبادي لوضع الثعبان بهذه الطريقة إلا أنهم أشاروا إلى أن عبادة الثعابين في البحرين أقدم بكثير منها في الإمارات موضع هذه المحاضرة.

بعد هذا التقديم واللمحة السريعة عن الثعابين وتقدّمها لدى الأمم والشعوب نتطرق إلى تقدّيس الثعابين في دولة الإمارات العربية المتحدة من خلال الآثار:

### تل القصيص:

حظيت الثعابين بتقدّيس من الإنسان في العديد من المدن الساحلية في الخليج، وكانت الآثار التي عثر عليها في الإمارات والبحرين أعطت انطبعا عن طرق تلك المعتقدات.

في مقبرة القصيص في دبي عثر على العديد من الثعابين النحاسية في مجموعة من المعابد وهي معروضة في متحف دبي (متحف قلعة الفهيدي) وهذه الثعابين تدل على المكانة الدينية التي كان خدام تلك المعابد يولونها.

ويشير النحاس بشكل واضح إلى الاستعمالات العديدة له منذ العصر النحاسي ٢٥٠٠ ق. م، وما بعده حتى الألف الأولى فترة هذه الدراسة (المحاضرة) حيث استخدم النحاس

في صب نماذج وأشكال الثعابين المطلوبة للمعابد، إن كثرة الأفاعي النحاسية (المسبقة الصب) التي عثر عليها في وضعيات مختلفة دلّت وبوضوح إلى أن عبادة الثعابين كانت مقدسة إلى جانب العبادات الأخرى، حيث أن التسامح الديني في تلك الفترة كان معروفاً في معظم مدن الإمارات.

### تل الأفاعي:

في الشمال الشرقي من ديرة وعلى بعد ١٣ ك متراً يوجد موقع القصييص الأثري في أرض سبخية محاطة بالكثبان الرملية والشجيرات الصحراوية والأعشاب البرية. وفي منطقة تبلغ مساحتها حوالي ٣ كيلو متر مربع يوجد تل رملي عثر الباحثون الأثريون فيه على بقايا أثرية عبارة عن قطع من الخزف والحجارة المحروقة كما عثر على عدد كبير من اللقي الأثرية منها ٦٢٢ سناً من أسنة السهام، وخزف محلي بزخارف تمثل أفاعي (رأساً ثعبانان لغطاء زبادية)، وأفاع أخرى برونزية صغيرة ومحارق بخور (مباخر حجرية) وأدوات كانت تستعمل يومياً من قبيل كلاليب (الصنارة) السمك (الذي يعرف محلياً بـ(الميدار)) والإبر والمخارز، وقدر الباحثون أن الموقع المذكور كان معبداً مقدساً وأنه كان للأفاعي دور مهم في حياة الناس فأطلق عليه تل الأفاعي ، لقد قارن الباحثون الأثريون بين الآثار المكتشفة في كل الأفاعي وغيرها من الآثار فوجدوا أنها كانت شائعة الاستعمال قبل مايزيد عن ٣٠٠٠ سنة. وتعد كل الأفاعي الأثر الوحيد في منطقة القصييص بدبي الذي لم يكن على شكل مدفن أثري، والمرجح أنه كان معبداً صغيراً.

في أحد المدافن المكتشفة في القصييص الذي يعود تاريخه إلى الألف الأول ق. م. ويحتوي على هيكل عظمي ممدد على الجانب الأيمن من الشمال إلى الجنوب في وضع القرفصاء يشبه بوجه نحو الجنوب الغربي ويحمل بيده اليمنى كأساً فخارياً صغيراً.

وقد يدل على أنه كان كاهناً أو إنساناً ذو مكانة دينية للمعبد.

والمعروف أن الموتى عادة لا يحملون في أيديهم أو يمسكون بشيء البتة وإنما كان يدفن بجوارهم الأسلحة كالخنجر والسيوف وكذلك اللقي والجرار الصغيرة مملئة بالطعام وهي دلالة على البعث المعروف لدى كل حضارات العالم، ولكن الإمساك بالكأس فهي دلالة على أمر ما ولعل الأقرب أنه ذو مكانة دينية قريبة من المعبد كما ذكرنا.

وهناك احد مدافن موقع القصييص الأثري يعود إلى النصف الثاني من الألف الثاني ق.م محفور بطبقة السبخة باتجاه شرق غرب على عمق ٣٠ سم وعرض ٩٠سم يحتوي على هيكلين عظميين متقابلين بوضع القرفصاء ممددين باتجاه شرق/ غرب متشابك الأيدي والأرجل يرجع كونهما زوجين دفنا معاً طبق طقوس وعادات دينية واجتماعية وفي القبر سيف قصير متحجر و ٤ سهام.

## الآثار في الإمارات:

كانت البداية عام ١٩٦٤م حين تم العثور على بعض التحف الإسلامية من العهد الأموي في منطقة الجميرا بدبي، لكن التنقيبات المستمرة في (حُتًا) و(القصييص) و(حميرا) أكدت مساهمة دبي منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة في بناء الحضارة، الإنسانية لمنطقة الخليج، وأنها شهدت كثافة سكانية مرموقة منذ بدايات الألف الثالث ق. م. وأحرزت تقدماً ملموساً في ميادين البناء والزراعة والصناعة والفن، وانتعاشاً في علاقاتها التجارية مع مراكز الحضارات الأخرى على امتداد سواحل الخليج.

إذا كان البناء الأثري في حُتا يعود إلى نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث ق. م. فإن القصييص كانت واحدة من أكبر وأهم المستوطنات البشرية على شاطئ الخليج، وقد أضاعت فترة كان يعتقد بأنها معتمة في المنطقة، حيث برع سكان الألفي الثاني والأول ق. م. حتى العصر الهيليني (١٥٠ سنة قبل الميلاد وهناك رأي ٢٠٠ سنة ق. م. في صناعة الفخار والبرونز والنحاس ودلت اللقي الأثرية من المدافن الحجرية في وادي جيمًا بحثًا والتي يعود بناؤها إلى الفترة من ٢٥٠٠ - ٢٠٠٠ ق. م على إنها استخدمت مرة أخرى في القرن الخامس الميلادي.

يقع وادي حُتا على بعد ١٠٠ ك م إلى الجنوب الشرقي من مدينة دبي في وادي منسيح تحده الجبال من كافة الأرجاء.

وعرفت بجمالها وخضرتها وماءها العذب مما يسر لقيام حضارة تمتد إلى آلاف السنين الغابرة كما تشير الاكتشافات الأثرية.

وفي منطقة المدافن الموجودة على الجانب الأيسر لوادي جيمًا يوجد حوالي ٥٠ مدفناً مختلفة الأحجام والأشكال تعود بتاريخها إلى الألف الثالث ق. م وتتنمي إلى طراز المدافن المعروفة بأمر النار، وهي من الأضلة القابلة التي تم العثور عليها في الإمارات الشمالية مما يثبت أن المنطقة شهدت كثافة سكانية وتقدماً حضارياً مرموقاً، وقد وجد في إحدى المدافن بقايا أثرية عبارة عن كميات من الكسر الفخارية وبعض الكسر لأواني مصنوعة من الحجر الصابوني (الاستيتايت) وغطائه المزخرف بالدوائر ذات النقاط المركزية وخرز مختلفة الأحجام والألوان وعدد من رؤوس السهام المصنوعة من النحاس وخاتم كبير من العظم، ويعتبر هذا المدفن من أهم المدافن وأكبرها حجماً في المنطقة ونموذجاً فريداً لأشكال المدافن القديمة.

إن مدافن حُتا تعطي الباحث دلالة واضحة على أن سكان هذه المنطقة حققوا تقدماً وازدهاراً في ميادين البناء والحضارة والفن.

## تل أم سقيم:

كشفت المسوحات الأثرية فوق تلة صغيرة على مقربة من الميناء السياحي بدبي عن موقع أثري يعود تاريخه للعصر البرونزي الأول (الألف الثالث ق. م) وقد أطلق عليه اسم تل أم سقيم.

يعتبر هذا الموقع دلالة جديدة على عمق الجذور الحضارية للإمارة وأهميتها في بناء الحضارة الإنسانية منذ بداية العصور التاريخية وحتى الوقت الحاضر حيث أنها تمثل أهمية كبيرة من الناحيتين التاريخية والأثرية باعتباره أول موقع من هذا العصر تم اكتشافه بالقرب من دبي.

دلت مواقع النار وبقايا الكتل الحجرية لأحدى المدن أو الموانئ القديمة التي يرجح بأنها لعبت دوراً هاماً ومميزاً في بناء الحضارة الخاصة بمنطقة الخليج كما ساهمت في تطور العلاقات الاقتصادية بين حضارتي الهند ووادي الرافدين إبان الألف الثالث ق.م.

### الموقع الأثرية في إمارة دبي:

الصفوح، العشوش، سروق الحديد، حتا، القصيص، الجميرا.

### الصفوح:

أحد أكبر المدافن في دبي يعود لعام ٢٥٠٠ - ٢٠٠٠م عثر فيه على خناجر، وإبر، وأزاميل، وخواتم برونزية، وكميات كبيرة من الخرز، وكذلك ١٦ أنية فخارية.

إن المقفنتيات الجنائزية التي تدل على البعث في الألف الثاني تدل وبكل وضوح على أن الإنسان على ثرى الإمارات كان يعتقد أو يؤمن بأهمية الديانة في حياته اليومية، وأن وجود المعابد هو أمر مهم بالإيمان والمعتقد.

### القصيص:

موقع أثري متميز يمتد على بعد ١٥ كيلو متراً من ديرة، ويمثل مركزاً حضارياً لبقايا استيطان بشري في المنطقة بدأ من الألف الثالث ق.م. وحتى النصف الثاني من الألف الأول ق.م تمثلت بالعثور على بقايا معبد صغير ربما خصص لعبادة الثعابين وحقولهن المدافن المختلفة الأشكال منها المستطيلة.

(الألف الثاني ق.م) والبيضاوية (النصف الثاني للألف الثاني ق.م) ومدافن بهيئة هذا (الألف الأول) ضم بعضها هياكل عظمية شبه سليمة، ولعل أكثر الاكتشافات الأثرية نذرة الصقور على مدافن تضم هيكلين ملتحمين يرجح كونهما زوجين متقابلين اتجهت الأنثى بهما نحو الجنوب حيث التجمعات البشرية استكمالاً لرعاية مستلزمات الحياة الاعتيادية اليومية.

على حين يستقبل الرجل البحر بوجهه تحديداً لمهامه الوظيفية بالبحث عن الرزق عبر البحر بالصيد أو الإبحار بحيث توضح معالم مجتمع حضاري مرتكز على عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت وتزود الملحود بالكثير من الهدايا الجنائزية من أدوات فخارية وبرونزية وحجرية، تمثل أدوات متتالية وجلس وجرار وأواني وأصداف، ولعل الدلالات التاريخية لتجمعات القصيص تشير بتمتعها بتفوق حضاري قائم على الارتباط التجاري بحكم الموقع الجغرافي والاقتصاد المدعم بالتصنيع المحلي.

## ختاماً:

أمل أن نكون قد سلطنا الضوء على التقديس للثعابين عند الإنسان الإماراتي خلال الألف الأول قبل الميلاد وشكراً.

## المراجع

\* إشارة: حتى كتابة هذه المحاضرة لم يتم العثور على أي مادة علمية أو مرجع كتب عن الثعابين من الناحية التاريخية في الخليج، ولهذا زرنا المتاحف بالدرجة الأولى للإطلاع مباشرة على الآثار ودراساتها.

- ١- زيارة لمتحف إمارة دبي في ٧/١/٢٠٠٩م.
  - ٢- زيارة لمتحف إمارة الشارقة في ٨/١/٢٠٠٩م.
  - ٣- زيارة لمتحف إمارة رأس الخيمة في ١٠/١/٢٠٠٩م.
  - ٤- زيارة لمتحف مدينة العين في ١١/١/٢٠٠٩م.
  - ٥- زيارة لمتحف إمارة أم القيوين في ١٠/١/٢٠٠٩م.
  - ٦- زيارة لمتحف إمارة الفجيرة في ١٢/١/٢٠٠٩م.
  - ٧- زيارة لمتحف المنامة/ مملكة البحرين.
  - ٨- الذنون، عبدا لحكيم.
  - بدايات الحضارة، ط س ٢٠٠٩م، دمشق.
  - ٩- التقويم القبطي واللغة القبطية.
  - ١٠- الدرورة، علي بن إبراهيم
- فصل: (صناعة الميادير في العصر البرونزي)، عن كتاب:  
جوانب من التراث البحري في دولة الإمارات العربية المتحدة.  
إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ، س ٢٠٠١م، أبو ظبي.
- ١١- طه، منير يوسف.
  - قصة الحلبي في دبي قبل ٣٠٠٠ عام.
  - مجلة تراث، نادي تراث الإمارات - أبو ظبي
  - ع ٤٥، جمادى الأولى ١٤٢٣هـ - أغسطس ٢٠٠٢م.
  - ١٢- النقيب، امتثال..
- تنقيبات تل الثعابين في دبي:  
مجلة تراث، نادي تراث الإمارات، أبو ظبي.
- ع ٧٦، س ٧، محرم/ صفر ١٤٢٦هـ - مارس ٢٠٠٥م.
  - ١٣- تاروز، سامح مقار
- اللهجة العامية وجذورها المصرية  
مكتبة مدلولي، ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧م، ط١، القاهرة.